فصلية اللسان المبين(بحوث في الأدب العربي)
(علمية محكّمة)
السنة السابعة، المسلسل الجديد، العدد الثالث و العشرون،ربيع١٣٩٥،ص ١٣٧-١١١

توظيف التراث التاريخي في شعر يحيي السماوي*

يحيي معروف، أستاذ قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة رازي، كرمانشاه
بهنام باقري، طالب الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة رازي، كرمانشاه

الملخَّص

تعد ظاهرة توظيف الشخصيات التراثية إحدي الظواهر الفنية ذات الأثر البالغ في تشكيل الخطاب الشعري المعاصر. تحاول هذه الدراسة الكشف عن توظيف التراث التاريخي، في شعر "يحيي السماوي"، للوقوف علي مقوماته، وملامحه، ومعرفة أبعاده الدلالية، وصور التعامل معه. وقد تبين من خلال الدراسة؛ أن الشاعر يحاول امتصاص الدور الذي قامت به هذه الشخصيات في الماضي وإضفاءه علي واقع المعيشة، ليعطي بعداً دلالياً علي الواقع السياسي والوضع الراهن والواقع المرير في العراق. وهذا التوظيف، قد عبّر عن موقف الشاعر، وما يعانيه من الحزن العميق لبعده عن وطنه الجريح وما يمر به من الآلام والمآسي. ورسم السماوي من خلال توظيف هذه الشخصيات التراثية؛ صورة معبرة عن مأساة الشعب العراقي في زمن سيطرة سفاكين "حزب البعث" علي العراق، وبعده "الاحتلال الأمريكي" وجرائمه البشعة في العراق. والشاعر يعمد إلى خلق روح المقاومة في النفوس، وذلك بدعوته إلى الصمود أمام ظلم الديكتاتورية الصدامية؛ والاحتلال الأمريكي وديمقراطيته المزعومة. ويبدو أن السماوي قد أحسن توظيف هذه الشخصيات في سياق التعبير عن همومه الذاتية وتصوير خوالجه النفسية في أجواء غنائية مفعمة بالحزن والألم والتشرد والحنين إلي وطنه العراق.

الكلمات الدليلية: يحيي السماوي، التراث التاريخي، الاحتلال، العراق.

---

* - تاريخ الوصول: ٩٣/١٢/٠٢ تاريخ القبول: ٩٤/٠٦/٠٨

عنوان بريد الكاتب الإلكتروني: y.marof@yahoo.com

١- المقدمة

يعدّ الموروث من المصادر الأساسية التي عكف عليها الشعراء في العصر الحديث، واستمدوا منها شخصيات تراثية عبروا من خلالها، عن جوانب من تجاربهم الخاصة. وقد تنوعت مصادر التراث التي استفاد منها الشعراء للتعبير عما يختلج في نفوسهم، بعد أن أدركوا أهميّة إدخال التراث في بناء القصيدة الحديثة. منها: مصادر دينية، ومصادر تاريخية، ومصادر أسطورية، ومصادر أدبية، وكان لهذه المصادر أثر كبير في تعميق تجربة الشاعر الشعورية. وتعدُّ الشخصيات التاريخية من أهم عناصر ذلك التراث الذي اتجه إليه الشعراء العرب في العصر الحديث، وسعوا إلي استدعائه في تجاربهم الشعرية. إنّ التراث التاريخي مصدر غني من مصادر التجربة الشعرية لدي "السماوي"، فقد اتكأ الشاعر علي جملة من الرموز التراثية، وحاول من خلالها أن يقدم لنا صورة لمأساة العراق وينقل تعبيره عن رؤية هذه الجراح والدمار، والآلام الذي يعاني منه الشاعر إزاء ما تمر بالعراق. ويقوم هذا البحث علي دراسة توظيف التراث التاريخي في شعر يحيي السماوي، وصور التعامل معه، واستقصاء أبعاده. وشاعرنا قد سعي إلي تضمين شعره تلك الشخصيات، لأن توظيف تلك الشخصيات بالنسبة للشاعر ليس مجرد ذكر للشخصية؛ بل المعرفة الواعية بملامح تلك الشخصيات وأبعادها الدلالية، تعد إحدى الوسائل التعبيرية التي يلجأ إليها الشاعر لإثراء تجربته الشعرية، والتعبير عما يحس من معاناة شعبه والقضايا التي يعيش الشاعر ووطنه الجريح تحت سياط ديكتاتورية "حزب البعث"، وبعده الاحتلال الأمريكي وديمقراطيته المزعومة، وجرائمه البشعة، ونشأت الفوضي والدمار والإرهاب في ظل هذه الحرية الزائف. من هنا اختار السماوي من الشخصيات التاريخية، ما وافق طبيعة قضايا وطنه الجريح، والهموم التي أراد نقلها إلي المتلقي. وأراد الشاعر من خلال توظيف هذه الشخصيات، كشف الواقع المرير، والوضع الراهن الذي يعيشه العراق، ليصور من خلالها عراق التي تعاني من الجوع والفقر والجور والدمار والانكسار؛ سواء في ظل النظام الديكتاتوري الصدامي، أو تحت رحي الاحتلال الأمريكي. لذلك، فإنّ توظيف الشخصيّات التراثية غدا ظاهرةً تسترعي الانتباه، وتستدعي البحث والدراسة. ومن هنا جاءت أهمية هذا البحث، وجدوي تسليط الضوء علي هذه التجربة الشعرية، والوقوف علي ملامحها وتذوق معانيها، والكشف عن أبعادها الدلالية وملامحها التي يتميز شاعرنا في توظيف هذه الشخصيات التراثية في شعره. اعتمدنا في دراستنا هذه، علي المنهج الوصفي التحليلي الذي يعني بدراسة توظيف الشخصيات التراثية في شعر يحيي السماوي؛ للوقوف علي مقوماتها وتجلياتها، واستنباط أبعادها الدلالية، مع معرفة فاعليتها لإثراء تجربة الشاعر الشعرية. وتتكون الدراسة من مقدمة، ثم البحث عن حياة الشاعر، ثم الحديث عن التراث وتوظيفه في الشعر العربي المعاصر، ثم تناولنا بالتحليل لأهم الشخصيات التاريخية التي وظفها الشاعر في شعره.

والأسئلة التي تطرح في هذه المقالة، هي:

١- كيف عبّر السماوي من خلال توظيف هذه الشخصيات التراثية، عن همومه وآلامه ومآسي وطنه الجريح؟

٢- كيف يجسد الشاعر من خلال هذا التوظيف، التفاعل بين الماضي والحاضر؟

أما المفروضات المقترحة التي نحاول أن نثبتها أثناء دراستنا هي:

١- يختار السماوي من الشخصيات التاريخية ما يعتقد أنها توافق طبيعة الأفكار والهموم التي يحملها ويريد إيصالها للمتلقي.

٢- أن التراث وتوظيفه في شعر يحيي السماوي وسيلة تساهم في إغناء تجربته الشعرية.

٣- هي محاولة موفقة للتعبير عن أحاسيسه وآلامه إزاء ما تمر بالعراق الجريح، من الظلم والدمار والمآسي، وحث الشعب العراقي علي الصمود والمقاومة.

إنّ شعر يحيي السماوي قد حظي بدراسات عديدة، منها: كتاب «الشعر العراقي في المنفي "السماوي" نموذجا» للدكتورة فاطمة القربي، وكتاب «العشق والإغتراب في شعر يحيي السماوي "قليلك لا كثيرهن نموذجا"» للدكتور "جاهين بدوي"، وهناك كتابان لـــ"عصام شرتح"، وهما: «آفاق الشعرية؛ دراسة في شعر يحيي السماوي» و«موحيات الخطاب الشعري في شعر يحيي السماوي» الصادر عن دار الينابيع في دمشق. وكذلك؛ كتاب «تجليات الحنين في تكريم الشاعر يحيي السماوي» لماجد الغرباوي، من مؤسسة المثقف العربي، في المجلدين من أجل تخليد الذكري، وما كتب حول انجازاته في هذه المناسبة. ويشتمل الكتاب علي عدة أبواب: دراسات نقدية، مقالات، حوار مفتوح مع الشاعر حول آرائه وتجربته الشعريه وحياته. كذلك أطروحة الدكتوراه الموسومة بـــــ «الموتيف في شعر يحيى السماوي» في جامعة الفردوسي بمحافظة مشهد. و رسالة أخري علي مستوي الماجستير للباحث "بهنام باقري" وبإشراف "يحيي معروف" تحت عنوان: «دراسة أسلوبية في شعر يحيي السماوي ديوان "نقوش علي جذع نخلة نموذجاً» في جامعة رازي كرمانشاه. أما المقالات التي تناولت شعر يحيي السماوي متعددة، منها: «الوطن منشوداً وموجوداً في شعر يحيي السماوي» لـــ "محسن العوني"، و«قراءة في قصيدة يحيي السماوي؛ يا صابراً عقدين إلا بضعة» لـــ "عبد الجواد خفاجي"، وهذه المقالات طبعت في كتاب "تجليات الحنين في تكريم الشاعر يحيي السماوي". كذلك مقالة «التناص القرآني في شعر يحيي السماوي»، لـــ "عباس طالب زاده ورسول بلاوي". ومقالة «عناصر الموسيقي في ديوان نقوش علي جذع نخلة لـــيحيي السماوي» لـــ "يحيي معروف وبهنام باقري" المنشورة في مجلة دراسات في اللّغة العربية وآدابها. أما بالنسبة لدراستنا – علي حد علمنا– لم يقم أحد بدراسة "توظيف التراث التاريخي في شعر يحيي السماوي"، كلّ هذه الدراسات لم يتطّرق أصحابها إلي موضوع "توظيف التراث التاريخي

في شعر يحيي السماوي"، وأنّ جميعها ركز علي معالجة موضوع الوطن بشكل عام، أو عالج شعر شاعر لغةً وأسلوباً. كل ما يوجد بالنسبة إليها، هي في كتاب "العشق والإغتراب في شعر يحيي السماوي"، حيث إن الكاتب في اثناء دراسته النقدية ذكر بعض الشواهد من شعر السماوي، حول استدعاء "سندباد وشمشون" في شعره. إذن، على الرغم من تنوع هذه الدراسات إلا أن هذه الدراسة، قُدمت في شكل مختلف عن غيرها من الدراسات في المجال نفسه، وهو أمر مردود إلى طبيعة المادة التي قامت عليها. فهي الدراسة الأولي التي تختص بدراسة "توظيف التراث التاريخي في شعر يحيي السماوي"، فجاءت لتسلط الضوء على جانب لم يعن به الدارسون.

٢- التعريف بالشاعر يحيي السماوي:

هو «يحيي عبّاس عبّود السّماوي، وُلد بمدينة السماوة بالعراق في السادس عشر من مارس ١٩٤٩م، ثم تخرّج في كلية الآداب الجامعة المستنصرية عام ١٩٧٤م، ثم عمل بالتدريس والصحافة والإعلام، استهدف بالملاحقة والحصار من قبل البعثيين في النظام الصّدّاميّ حتي فرّ إلي المملكة العربية السعودية سنة ١٩٩١، واستقرّ بها في جدّة حتي سنة ١٩٩٧م، يعمل بالتدريس والصحافة، ثم انتقل مهاجراً إلي إستراليا؛ وبها يقيم حتي كتابة هذه السطور» (بدوي، ٢٠١٠: ١١). وهو عضو اتحاد الأدباء العراقيين، عضو اتحاد الكتاب العرب، وعضو اتحاد الأدباء الأستراليين. ونشر أكثر من مقال سياسي في الصحافة العربية حول جرائم النظام (البعث). وترجمت العديد من قصائده إلي اللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية.

أصدر السماوي حتي الآن أكثر من عشرين ديواناً، يكفينا لنقرأ عناوين دواوينه، لنعرف تفاصيل المحنة والجراح والمآسي. فهي توحي بمضامينها عمق هيامه وحنينه بالوطن. وشكل علاقة الشاعر بالوطن جوهر دواوينه من حيث مضامينها، فقد التصق بالوطن إلي حدّ الانصهار التام، وانعكس ذلك في شعره بشكل مباشر. كما يري "عصام شرتح"؛ «أننا عندما نخوض في تجربة شعريَّة متميزة؛ كتجربة الشاعر يحيي السماوي فإننا نخوض في رحاب عوالم تصويريَّة مدهشة وآفاق رحبة؛ تترك القارئ يسبح في فضاء جماليَّة شعريَّة عالية؛ كجمالية اللغة؛ والرمز، والإيقاع، والمشهد الشعري عامة؛ ولعلّ أبرز ما يشدُّ القرَّاء إلي أشعار السماوي مقدرتها التصويريَّة العالية وحرصها علي تكثيف المواقف الشعوريَّة، وبلورتها بألق جماليّ شاعري عميق» (شرتح، ٢٠١١ الف: ٨). إذن؛ هو شاعر كبير في بناء صورته الشعرية، وتحفل انجازاته بقيم الإنسانية النبيلة، ووظف شعره لخدمة الإنسان والمسيرة الإنسانية وخاصة تفاعله الكبير مع قضية وطنه الجريح الذي تعرض للطواغيت – حزب البعث – وللاحتلال الأمريكي، ولأشرس هجمات إرهابية في التاريخ نتيجة هذا الاحتلال وديمقراطيته المزعومة.

٣- توظيف التراث التاريخي في الشعر العربي الحديث

يعدّ مصطلح التراث من أهم المصطلحات ذيوعاً في حقل الدراسات النقدية المعاصرة. ولا يخفي علي دارس للأدب أو متذوقه، أنّ التواصل بالتراث سواء أكان دينياً أم تاريخياً يجعل للنص قيمة خاصة؛ وعمقاً أقوي يثير القارئ، ويجعله أكثر قرباً من النص، ويدل علي ثقافة الشاعر، ويخلق الصلة بين القارئ والنص. والتراث كما عرفه "جبور عبد النور" أنه «ما تراكم خلال الأزمنة من تقاليد، وعادات، وتجارب، وخبرات، وفنون، وعلوم، في شعب من الشعوب، وهو جزء أساسي من قوامه الاجتماعي، والإنساني، والسياسي، والتاريخي، والخلقي، ويوثق علائقه بالأجيال الغابرة التي عملت على تكوين هذا التراث وإغنائه» (عبد النور،١٩٧٩: ٦٣). ويري نزار قباني؛ «هو الرحم الذي تربينا في داخله جميعاً وتشكلت فيه ملامحنا الثقافية الأولي، والذين يقولون لا تراث لهم، كالذين يقولون لا أمّ لهم» (قباني،١٩٨١: ١٦٦). إنّ الشعر الحديث عرف في العقود الأخيرة رغبة عميقة في توظيف التراث؛ «والواقع أن استلهام التراث قد أصبح ظاهرة بارزة، وسمة شائعة في الشعر العربي الحديث، إذ انطلق الشعراء العرب في استدعاء هذا التراث من إيمانهم بقيمة التراث وما له من دور عظيم في اتصال الحاضر بالماضي، فقدموا العديد من التجارب الشعرية المستلهمة من التراث على اختلافه، واتسمت هذه التجارب بارتباطها بالقيم الروحية والفكرية، واكتسبت أصالة فنية من خلال البعد التاريخي والحضاري، وتخطت حاجز الزمن، فامتزجت في ماضيها، وصار الماضي والحاضر وحدة واحدة» (حمدان، ٢٠٠٧: ٩٤). ولاشكّ أنّ للموروث أهمية في الأدب العربي الحديث، إذ يُعدّ التراث منبعاً من منابع الإلهام الشعري. إنّ توظيف التراث في العمل الشعري يُضفي عليه «عراقةً وأصالةً، ويمثّل نوعاً من امتداد الماضي في الحاضر، وتغلغُل الحاضر بجذوره في تربة الماضي الخصبة المعطاء. كما أنه يمنح الرؤية الشعرية نوعاً من الشمول والكلية؛ إذ يجعلها تتخطي حدود الزمان والمكان، ويتعانق في إطارها الماضي مع الحاضر» (عشري زايد، ٢٠٠٣: ١٢٨). إذن، للتراث أهمية بالغة للشاعر العربي المعاصر، فهو يستمد منه الرؤية والهوية، لإغناء تجربته الشعرية. وأدرك الشعراء أهمية توظيف الشخصيات التاريخية والدور الذي تلعبه كل شخصية في نصوصهم الشعرية، وعند تتبعنا محتوي شعر "يحيي السماوي" وجدنا الشاعر وطنياً بارزاً يدافع عن وطنه بشعره، ويعمد الشاعر إلى توظيف الشخصيات التاريخية، لتكون تعبيراً عن مواقف يريدها، أو ليحاكم العصر ونقائصه من خلالها، وهو في ذلك يختار الشخصيات التي تتلاءم مضمون تجربته، وتكون استلهاماته التاريخية صورة رامزة لقضايا الشعب لإعطاء الخطاب الشعري قيمة فنية خاصة ذات تأثير عميق في نفس المتلقي، بما يتناسب مع رؤيته الشعرية لضرورة الجهاد للدفاع عن العزة والكرامة.

٤- التراث التاريخي في شعر يحيي السماوي

١-٤- معتصم

استلهم الشاعر موقف "معتصم"(١) وصرخة المرأة المظلومة التي امتهنت كرامتها علي يد رجل من عمّوريّة، ليسقطه علي الواقع العربي والعراقي الحاضر، من فقدان النخوة والغيرة. ومن هنا كانت شخصية "معتصم" ومعركة العمورية من الوسائل التي وظفها الشاعر لمواجهة هذه الصفات، والقيم، والتعبير عن رفضها. وذلك قوله:

كيف / يقومُ بيننا (مُعْتَصِمٌ) / يذودُ عن كرامة (الحُرَّةِ) / حين يَسْتَبيحُ خِدْرَها المنبوذُ والآفِكُ والهَجينْ / إن كانت (الأُمَّةُ) قد أوْكَلَتِ (العصْمَةَ) للغريبِ / فهو الآمرُ الناهي.. ولِيُّ أمرِها.. / وصاحبُ القرارِ ــ وقتَ الفَصْلِ ــ بين الظنِّ واليقينْ؟(السماوي، ٢٠٠٥: ١١٤).

أصبحت هذه الحادثة رمزا للكرامة والعزة عبر التاريخ الإسلامي؛ واليوم غدا الأمر مختلفاً، فلم تعد العزة والغيرة قائمة، ولم يتحرك العرب لنجدة المظلومين. وهذه الصورة التي رسمها السماوي في هذا المقطع، تمثل صورة الجبن، والمؤامرة، والتخاذل، وحماية العدو، وتبين بشكل مؤلم، وفاضح عن رداءة الواقع المتخاذل العربي. سيطر الواقع الاجتماعي والفكري والسياسي الذي يمر علي العراق علي شعر السماوي، فيوحي من خلال هذه الصورة إلي المعاناة التي يعيشها بلده من ظلم ودمار وقسوة إثر احتلال الأمريكان ونشأت الفوضي والدمار وتصارع القوي والأحزاب لأجل الوصول إلي غاياتهم وأميالهم التوسعية في العراق. فهذا الاستحضار، يجعلنا نتذكر الماضي، يوم كانت العزة والغيرة تحرك المشاعر، واليوم غدا الحال غير ذلك؛ فجاء التوظيف مفارقاً بين عصرين؛ عصر العزة والكرامة في ماضي ذهبي، وعصر المهانة والتخاذل في الحاضر، فهم بدلاً من أن يمتسكوا بحبل الله صاروا يعتصمون بحبل الاستبداد، والمحتلين والغزاة. فأراد السماوي من خلال هذا التوظيف، التعبير عن العار الواقع علي الوطن وتحريك مشاعر الأمة نحوه. إذن، فمعتصم يمثل صورة الماضي النموذجي الذي يحلم بعودته، والواقع المتخاذل يمثل الصورة المقابلة التي يحاول نقدها، والسخرية منها؛ وعلى قدر تقابل هاتين الصورتين يبرز التناقض، والمفارقة بين الماضي والحاضر.

كذلك قوله:

كفي الصُراخَ / فليسَ في هذا الزمان المِسخِ "معتصم" يذود عن الحرائر والترابِ / وعن عفافِ التينِ والزيتونِ / فالكرسيُّ أخصي في فوارِسنا الرجولةْ. (السماوي، ٢٠٠٨: ٩٠).

تضاعف الحزن لدي الشاعر؛ وهو يدرك أنّ الخراب والدمار قد عمّ وطنه ولم يبق له سوي الدمار والجراح. وهو لمس بنفسه كم تحول وطنه العزيز إلي معتقل تداس فيه الكرامة والعزة. ففي هذا المقطع،

يصور لنا الواقع المؤلم الذي تعيشه وطنه العراق من التخاذل والاستسلام، فيتخذ الشاعر شخصية "معتصم" ليشير إلي الكرامة والعزة في الماضي وغاية التخاذل والسقوط في الحاضر. فقد أشار السماوي من خلال هذا التوظيف إلى البون الشاسع بين الماضي والحاضر ليصور من خلال هذه الصورة، المواقف الخانعة من ذل واستسلام لأولئك الذين خانوا مصالح الشعب العراقي لأجل وصول إلي غاياتهم في السلطة. من هنا كانت الفكرة الرئيسية لهذا الاستدعاء، تقوم علي رسم الشاعر صورة معبرة عن مأساة الشعب العراقي وتبعاتها، لما حل بهم من القتل، والجراح، والآلام. وهو بذلك يريد تصوير الاحتلال الأمريكي وعملائه وأثرهما المدمر علي حياة الشعب العراقي بكافة نواحيها. ولكنه هنا لا يستدعي شخصية معتصم ليحدثنا عن سيرتها، وصفاتها، وأبعادها التاريخية بقدر ما يستدعيها وسيلة تعبيرية في أبعادها المشرقة يسهم بها في كشف الموقف العراقي الراهن بما فيه من وهن، واستسلام. وقد وفق الشاعر بتوظيفه شخصية معتصم بهذه الصورة ومزجها في جو النص، جو: المهانة، الذل، الاستسلام والتخلي عن الجهاد؛ ليصور واقع الشعب المرير في الاعتداء على كرامته، وانتهاك مقدساته، وسفك دمائه، وسلب عزته.

٢-٤- صلاح الدين

ويستدعي الشاعر شخصية "صلاح الدين" التي تميزت بمكانة كبيرة في مجال الأدب والدراسات الحديثة، حيث شكلت عنده حالة الشعب، وما يعانيه اليوم من جراح وآلام، وتجاهل، وتخاذل، دفعته لاستدعاء صلاح الدين، موظفاً الشخصية وسيلة للحث وأداة للمعاتبة حيث قال متسائلا:

كيف يقومُ في جموعِنا (صلاحُ الدينْ) / ونحن لا (صَلاحَ) في نفوسِنا / مُسْتَبْدِلين لَذَّةً زائلةً بـــ (الدِّينْ)؟ /كيفَ يَضوعُ صُبْحُنا مَسَرَّةً / وليلُنا وِداداً / إنْ كان فينا نَفَرٌ / يرى الخرابَ نعمةً / وَذَبْحَ إنسانٍ نضالاً / واختطافَ امرأةٍ شَهامةً / وَنَسْفَ بَيْتٍ آمنٍ جِهادا؟ (السماوي، ٢٠٠٥: ١١٤-١١٥).

إنّ شخصية "صلاح الدين"، كشخصية بطولية احتلت مكانتها في مخزون الذاكرة العربية - بغض النظر عن أعماله السلبية والايجابية - فاستثمرها الشعراء علي اختلاف رؤاهم. هنا؛ يستدعي الشاعر شخصية صلاح الدين لكشف الموقف المؤلم الراهن بما فيه من وهن، واستسلام، ومآسٍ، ونفاق بين الشعب، وجعلها متكأً يعلق عليه الشاعر شكواه من الحال المريرة التي يعانيها شعبه. والشاعر بهذا التوظيف يولد إحساساً أليماً في نفس المتلقي، وهذا التوظيف يساعد علي تعميق الإحساس لكشف عمق المأساة والتجافي عن الدين والاستسلام لحياة الذل وقتل الشقيق باسم الجهاد. إذن؛ ففي هذا الحال المؤلم كيف لا تسقط كرامة البلد، وكيف تكون قادرة علي إنجاب صلاح الدين الجديد القادر علي استعادة الكرامة والعزة. والسماوي في هذا التناول رسم صورة سوداوية مسكونة بالألم والحزن والتفجع على العراق،

وحالها الراهن الذي برزت فيه مثقلة بالتمزق والضياع تحت الإحتلال، مازجاً هذه الصورة القاتمة، والاحساس المتألم باحساس آخر دفع إليه الإعجاب بتاريخ العراق والإشادة بماضيها وحضارتها من خلال صورة صلاح الدين وتعميق الإحساس بالمفارقة بين واقعين متضادين: واقع مشرف مضيء، وواقع محبط منكسر. وهنا ارتبط استدعاء صلاح الدين باستنهاض الواقع، وإذكاء الحمية واستثارة وجدان الشعب نحو التحرك الفاعل لتعود إلى مجده، وعزه، وتاريخه المشرق.

٣-٤- أبرهة وسجيل أبابيل

واستدعي السماوي شخصيات تاريخية ذات بعد سلبي، وكذلك حوادث تاريخية لها دلالات من شأنها الكشف عن واقع التجربة التي عاشها الشاعر، ومن هذه الشخصيات "أبرهة الحبشة"، ليسقطها علي واقع العراق من سيطرة وظلم "حزب البعث" عليها والاحتلال الأمريكي، وقوله:

يا آل ياسرَ والشهادةُ حلمنا ما دام "أبرهةٌ" بدجلة يمـــخُرُ
يا آل ياسر والفتى بعقيـــدةٍ يُجْلى فيملك أَصْغَرَيْهِ وَيُؤْسِرُ
تتكسَّرُ الأصفادُ رغمَ صلابةٍ وعبيرُ أزهارِ التـــقى لا يُكْسَرُ
يا آل ياســـرَ والعقيدةُ طِيْنُها يُجْلَى على نارِ الجهادِ ويُفْخَرُ

(السماوي، ١٩٩٣ الف: ٣٦).

إنّ هذا الاستدعاء رسالة تعبيرية للشاعر جاء بشكل غير معمق، وبطريقة إشارية خاطفة لكنها حملت رؤيته الشعرية؛ إنّ العراق كانت تسيطر عليها السلطة الحاكمة، (حزب البعث) وتمارس العنف والاضطهاد بحق شعبها، بكل ما لديها من قوة ووحشية في محاولة القضاء علي أبناءها، فالسماوي متألم علي واقع هذه الأمة. فاختياره لأبرهة (صدام)، يوحي بمدي ما كان يمتلك هذه الطاغية من قوة وعتاد وآلة مدمرة، وعدم تكافؤ بين الطرفين، فنشعر بكل معاني الرهبة والبشاعة لهذا الغاصب المتجبر. لكن؛ مهما استبد الحاكم وظلم، فإن الشاعر يظل مسكونا بالوعد والأمل ، فالخلاص آت لا ريب فيه. إذن، وعي الشاعر لا يجعله يقف عند مرحلة الألم والحزن ويستسلم لها، بل ينطلق منها، داعياً الشعب إلى مزيد من التضحيات، من أجل تحرير الوطن من تلك القوى الحاكمة الظالمة.

وكذلك يستدعي الشاعر هذه الحادثة التاريخية – هجوم أبرهة الحبشة ومحاولة هدم الكعبة – ذات البعد الديني، من خلال ذكر "سجيل أبابيل"، و في ذلك قوله:

ولنا من النخل: / شرفُ الموتِ وقوفاً دون انحناء / فخذوا بنصحي: / عيونكم لا تقوى / على عواصف صحارانا / أفيالكم الفولاذية / لن تتحمّل "سِجِّيلِ أبابيلنا" / دارنا أصغرُ من أنْ تقسَّم / وأكبرُ من أنْ تبْتلع. (السماوي، ٢٠٠٩: ٨٦).

يستدعي الشاعر في هذا المقطع، شخصية ذات بعد سلبي وهي "أبرهة الحبشة"، باستخدام "سجيل أبابيل"، وإذا كان أبرهة الحبشة هو عنوان الظلم والشراسة والوحشية، في ذلك الزمان، فأمريكا هي "أبرهة العصر"، الذي يجتاح العالم الإسلامي. ويحاول الشاعر امتصاص الدور الذي قامت به هذه الشخصية في الماضي وإضفاءه علي واقع المعاش، تمثل فيما يقوم به أبرهة العصر (أمريكا)، من تدمير وهدم واحتلال العراق. ومهما تمتلك جيوش"أبرهة العصر" العتاد والآلة المدمرة والأفيال الفولاذية (الدبابات)، إن مهمة الشاعر واضحة في بعث روح المقاومة وعدم الاستسلام؛ فيرسل السماوي رسالته إلي أهله ووطنه ويحثهم علي الجهاد ومواجهة العدو الغاشم حتي ينالوا حريتهم وكرامتهم. فقد غدا هذا الاستدعاء صورة من صور الإصرار على المواجهة والعزيمة على المقاومة تدفع النفوس إلى مواصلة الجهاد، وتزيل عنها اليأس، والشعور بالهزيمة، والإحباط، والتقاعس عن مقارعة المحتل المعتدي؛ مستثمراً هذا العرض التاريخي في إحياء الأمل، وبعثه في النفوس، والتأكيد على الغد المشرق الذي سيعود فيه للعراق مجدها العظيم.

٤-٤- أبو رُغال

إنّ "أبا رغال"، «رجل من سقيف، أرسلوه مع أبرهه يدله علي بيت الحرام لهدمه، فلما وصل مع أبرهه إلي موضع يسمي "المغس"، مات أبو رغال. فرجمت قبره العرب» (هارون، ١٩٨٥: ٢٦). وينعت كل خائن عربي بأبي رغال، هذا رمز خيانة عربي. والشاعر بالرجوع إلي التاريخ يستعير ملامح هذه الشخصية لتعميق معني الذل والهوان، وتعبير عن الدهشة؛ مما يحدث في الواقع الراهن العراق من التخاذل والخنوع والخيانة، وحماية العدو، ويحث الشاعر الشعب لاستئصال جذور هذه الخونة من الوطن. وذلك قوله:

البندقيةُ وحدُها الحَكَمُ المُنَزَّهُ / بينَ مشكاةِ اليقينِ / وبين ديجورِ الضَلالْ.. / البندقيةُ ــ لا اليراعُ ــ الناطقُ الرسميُّ / باسمِ الدارِ تَطْحَنُها خيولُ الإحتلالْ / باسمِ الغدِ المأمولِ / باسمِ طفولةٍ سُفِحَتْ / وباسمِ عُراةِ كهفِ الإعتقالْ / باسم الفراتِ المستباحِ / وباسمِ نخلٍ مُثْكَلٍ بالسَعْفِ والعرجونِ / حتى باتَ مذبوحَ الظِلالْ / فاكنسْ بمجرفةِ الجهادِ الوَحْلَ / واسْتَأْصِلْ جذورَ (أبي رُغالْ) / (لا يسلم الشرفُ الرفيعُ من الأذى)/ حتى يُزالَ الإحتلالْ / حانت صلاةُ الذَوْدِ.. / حيَّ على النزالِ.. على النزالِ / على النزالْ. (السماوي، ٢٠٠٥: ١٢٨- ١٢٩).

إنّ السماوي حمل هموم وطنه واستخدم الشعر للدفاع عن وطنه وشعبه، وهو يريد من أبناء الوطن مواجهة المحتل الغاشم، لأنّ العراق كانت ترزح تحت نير الاحتلال وقد نشر الرعب والجراح والدمار في أنحاء البلاد. وفي ظل الاحتلال لا كرامة لحي وبالتالي لا كرامة لميت، الأحياء هم الذين يكرمون

كرامتهم بوقوفهم وصمودم في وجه المحتل. فيري أنه يجب التمسك بفريضة الجهاد لدحر المحتلين عن الوطن لتبقي العراق عزيزة علي أهلها؛ فيدعوهم بالجهاد وطرد المحتل وعملائه. ويوجه الشاعر سهام غضبه لأؤلئك الذين خانوا مصالح الشعب العراقي ولاذوا بالمحتل. فلجأ الشاعر إلى التاريخ، ويستمد من أحداثه وشخوصه رموزاً لها دلالتها في الواقع الراهن. فيستدعي الشاعر شخصية تاريخية ذات مدلول سلبي، وهذه الشخصية هي "أبو رغال"، وقد اشتهر أبو رغال بقصته المعروفة كدليل لأبرهة الحبشة عندما قصد الكعبة هادماً، وهنا يختار الشاعر ما يناسب تجربته من ملامح هذه الشخصية، وهو ملمح الخيانة، للتعبير عن الواقع المؤلم الراهن في العراق، فتشير هذه الشخصية بدلالة واضحة علي ما يتسم به الوضع العراقي الراهن من الاقتتال الداخلي، وهي بدورها تسهم في جلاء العالم الداخلي للشاعر، وتكشف موقفه وما يختزنه من أسي وألم، ورفض هذه الأحداث التي تمر بالعراق. فهو يدعو بالجهاد والقضاء علي العملاء والخائنين والمحتلين واستئصال جذورهم حتي ينالوا كرامتهم وعزتهم وحريتهم منهم. كما في المقطع ذاته؛ يوظف البيت المشهور لشاعر الجاهلي؛ "زهير بن ابي سلمي":

لايسلم الشرف الرفيع من الأذي حتي يُراقَ علي جوانبه الدمُ»

بما يتناسب مع رؤيته الشعرية لضرورة الجهاد للدفاع عن العزة والكرامة. ويقول الناقد السوري "عصام شرتح": «إنّ الشاعر وظف هذا القول في نصه بما يتواءم ورؤيته الشعرية ومنظوره للجهاد في الدفاع عن الأرض والشرف؛ فهو يريد من أبناء الثورة العراقية أن يستمروا في نضالهم وجهادهم حتى ينالوا حريتهم من الغزاة الأمريكان الطامعين» (شرتح، ٢٠١١ ب: ١٤٨). والسماوي في هذا الإستدعاء، يريد استحضار الذهن لتلك الشخصية والدورالتي لعبتها، والقضايا التي كانت تتعامل معها بعد مراجعة ذهنية يقوم بها القارئ ليصل إلى القضية التي يريد طرحها السماوي؛ وقد ربط الشاعر في هذا الجانب بين التخاذل، والخيانات العربية التي أسهمت في تعميق هذا الجراح والآلام والتشريد، وحاول من خلال استدعاء هذه الشخصية وصل الماضي بالحاضر للتعبير عن إدانته الواقع العراقي – العربي – المتردي من الذل و الهوان والخيانة.

٥-٤- هولاكو

من الظواهر اللافتة في استخدامات الشاعر توظيفه لمعطيات التاريخ؛ إذ يقوم السماوي باستلهام الحدث التاريخي والشخصيات التاريخية، بغية توظيفهما في نصه، بما تحمله من دلالات واشارات في واقع الراهن، ومن أكثر هذه الشخصيات، تواتراً في شعره، هي شخصية "هولاكو" التتري، ويرمز به إلي الاحتلال، الطغاة، والاستعمار والسلطة السياسية. وقوله:

يلزمني قلب "هولاكو" وضمير "تيمورلنك" / لأعرفَ حجم لذة "المحرر الأمريكي" / بعد اغتصابه زهرة

الله "عبير قاسم حمزة"[٢] / قبل رشٍّ صدرها بالرصاص / وإيقاد النار في جسدها / ليُـــذيب الجليـــد المُتجَمِّدَ في عروقه / أياً كانت مآسي الغد.. / أياً كـــان غضـــب الأعاصـــير.. / الـــبراكين .. / الطوفانات.. / الزلازل.. / والأوبئة.. / فأجيال الغد لابدّ أن تكون أحسن حالاً / مادامَ أن الغدَ / لن يشهَدَ ولادةَ وحشٍ جديد / اسمه: / "جورج بوش الحفيد"!! (السماوي، ٢٠٠٩: ٨١).

"هولاكو" هو حفيد "جنكيزخان" الذي تغلغلت شهوة القتل في دمه، وقد بني هولاكو مجده كجده علي جبال من الجماجم والرؤوس المقطوعة، كما فعل في بغداد التي انقض عليها في عهد "المستعصم بالله" عام ١٢٥٨م. فدمّرها، وارتكب فيها الجرائم البشعة من القتل والدمار وهتك الأعراض. والسماوي من خلال هذا الاستحضار، أراد أن يقنع المتلقي بأنّ صورة العدو عبر التاريخ واحدة لا تتغير علي الرغم من مرحلة انعطاف التاريخي المتصلة بعملية السلام والديمقراطية؛ فقد سقطت بغداد في أيدي "التتار" وها هي اليوم تسقط في أيدي أمريكان وحلفائهم، وإن شخصية "هولاكو" و "تيمور لنك"، تشبهان إلي حد كبير الشخصيات المجرمة (جورج بوش) الموجودة في هذا العصر، والتي فعل نفس فعلها من غزو للعراق وارتكاب الجرائم الشنيعة فيها من القتل والجراح والدمار وهتك الأعراض. لذالك نجد الشاعر في أبياته ربط الماضي بالحاضر ربطاً قوياً؛ ويتشبث بروح المقاومة؛ لتغدو هذه النزعة في رؤية الشاعر للوطن مكوناً جوهرياً في وعيه الواقعي، وسبيلاً محققاً للغاية التي يريدها من استعانته بتاريخ، متقين أن لا مجال للنسيان، لأن الجريمة تتكر في كل يوم بلون و طعم جديدين.

كذلك قوله:

الكلُ أعمي في النهارْ / مادامَ أنَّ الصبحَ كهفٌ موصَدُ / والشمسَ غادَرَتِ المدينةَ / ربما / خجلاً من المُتناطحينَ علي فتاتِ نطيحةٍ / والسِّحتِ من زُقومِ "دولارْ" / والواقفين / علي رصيفِ الإنتظارْ / أملاً بـــ "سجيل" تدكُّ بهِ السماءُ / خيولَ "هولاكو الجديد" وموقدي نارِ الجحيمِ الطائفيِّ / وسارقي قوت الجياعِ / وبائعي في السرِّ بستان المدينةِ لـــ "التتار". (السماوي، ٢٠٠٨: ١٧٥- ١٧٦).

إنّ العراق وهي تعيش حالة التردي، واليوم لم تجد من يمد لها يداً؛ لأنها افتقدت الحقائق، وامتلأت أجواؤها بالزيف والخيانة. في هذا المقطع نجد أن الشاعر استخدم كلمة "التتار"، وفيما يكتبه التاريخ، نعلم بأن التتار قد كانوا أبشع المجرمين فقد دخلوا بغداد واسفكوا الدماء ودمروا معالمها. وإذا كان "هولاكو" دمّر، وشرّد، وقتل، وطغي، فغزاة العصر، (الأمريكان)، لا يختلفون في ملامحهم عنه. والسماوي يربط بين الأحداث المتوالية التي تعرض لها العراق، عبر التاريخ من قبل الغزاة. وهذه الأحداث إنما تأخذ طابعاً واحداً حتي لو اختلفت الغزاة. ونري في هذا المقطع، إن السماوي ينتقد الواقع الراهن من الاقتتال الداخلي، في العراق وما فيه من ظلم وانقلاب هائل في القيم والمفاهيم؛ ويوجه سهام غضبه لأولئك الذين خانوا مصالح الشعب العراقي ولاذوا بالمحتل، وهم كلّ العرب الملتفين حول الغزاة

بقيادة أمريكا، وهم أؤلئك الذين مهدوا الطريق لهم، وبسطوها ورووداً. ويعمد إلي خلق روح المقاومة في النفوس، وذلك بدعوته إلى الصمود أمام العدو، والتمسك بأبناء الشعب ورفض الخضوع والاستسلام؛ وذلك يتطلب التضحية والفداء لطرد جيوش "أبرهة العصر" من الوطن. وهذا ما يؤكد أن الشاعر بهذا الاستحضار، إنما سعى إلى الإثارة، والتهكم، والسخرية وتوجيه النقد لواقع العراقي الراهن من خلال صورة الوطن الضائع الذي تغيرت معالمه، وانقلبت صورته إلى صورة ذليلة، وغدا مهاناً يباع بأبخس الأثمان.

كذلك قوله:

ما مات "كامل"[٣] / "كامل" اختصَرَ الطريقَ إلي السَّماءْ / من كوَّةٍ في رأسهِ الضوئيِّ / والجسدِ المخَضَّبِ بالدماءْ / قد كان يعلمُ / أنَّ "هولاكو" الجديد / أتي / ليحرث حقلَ دجلةَ بالقنابلْ / ويدُكُّ أعشاشَ الحمامِ / وأنْ يُطيلَ الليلَ / في وطن الأراملْ / طَمَعاً بتبرِ الرافدينِ / ونقمَةً من "سبي بابلْ"[٤] / لكنّ "كاملَ" كان كاملْ / فأبي الوقوفَ علي رصيفِ الإنتظارِ / أبي التخاذلْ / فاختارَ "كاملُ" أن يُقاتِلْ. (السماوي، ٢٠١٠: ١٢- ١٣).

عكس السماوي في شعره بعداً مقاوماً، كشف عنه صور المعاناة التي يحياها الشعب العراقي نتيجة سيطرة "حزب البعث" علي العراق، وبعده الاحتلال الأمريكي علي أرضه. وهو من خلال استحضار صورة الشهيد "كامل شياع" يتذكر طاغية البلد (صدام)، وما عمله بالعراق من ظلم وقهر واستبداد، وأن هذا الظالم من أهل هذا الوطن، فـــ"كامل" رفض التخاذل والاستسلام أمام العدو، فأختار أن يقاتل في سبيل وطنه. فالسماوي يصور مسلسل القتل والتدمير في العراق؛ سواء في ظل النظام الديكتاتوري، أو تحت رحي جيوش "هولاكو" الجديد. فليس التاريخ الماضي إلا معادلاً فنياً وموضوعياً لتاريخ الحاضر؛ فـــ "هولاكو"، هو القناع الذي ألبسه لغزاة العصر الذين أهلكوا الشعوب والبلاد، وذلك من أجل لفت الأنظار وشد الانتباه، ودق ناقوس الخطر والتأكيد علي أن ذلك البلاء لم يحدث فقط في الأيام الماضية، وأن الخطر والشر والظلم والهمجية، مازال قائماً، و أن الصفات الدموية والظلم والاستبداد والطغيان الذي مارسه "هولاكو" التتري، في بغداد، قد تجسد من جديد في طغاة ومجرمي هذا العصر من الأمريكا و من سار في ركبهم. وفي المقطع ذاته، يتذكر الشاعر قضية "السبي البابلي" التي حدثت في زمن الملك "نبوخذ نصر"، وهو بالرجوع إلي التاريخ وذكر قضية "سبي البابلي" يصوغ الفكرة معتمداً علي التاريخ وحضارة هذا الشعب العريق؛ بأن اليهود ومن والاهم دمروا العراق، طمعاً بثروات أرض الرافدين، وانتقاماً من "سبي البابلي"، فهو بهذا الرجوع إلي تاريخ مرة أخري يحثهم علي المقاومة والصمود ورفض التخاذل والاستسلام.

٦-٤- جنكيزخان

ويرمز بـــ"جنكيزخان" إلي الطاغية المقبور (صدام) وجرائمه البشعة في العراق، وذلك قوله:

لا تُخافي.. يا أمي.. إنَّ همسةَ الإيمان / أقوي مِن قنابلهم / وستبقي كلمة "العدالة"، كافيةً لأنْ / تهز مفاصل "جنكيزخان" / الواقف / علي تلٍّ مِن جثثِ الأطفال / أمام العلم / الوطني المثقّبِ برصاصِ الخيانة! (السماوي ، ١٩٩٣ب: ٢٨).

إنّ الشاعر قد استولى عليه هذا الجو الحزين الكئيب؛ في العراق تترف دماء العراقيين الثائرين، الذين يتعرضون لأقسي ألوان التعذيب، من قبل سفاكين "حزب البعث"، فهم يطاردون ويقتلون، وذلك بسبب وقوفهم أمام استبدادهم ومن أجل حفاظ علي حرية هذا الوطن. وقد تواصل السماوي مع الموروث التاريخي، وذلك بالإشارة إلي جرائم "جنكيزخان" المغولي في هذا البلد، وقتل الشيوخ والنساء والأطفال. ومن خلال هذا التواصل يصل الماضي في الحاضر، ويجعل الوضع الراهن في هذا البلد صورة متجددة من صور الماضي، ولكن مع الفرق المؤلم، بأن هذا الحاضر كان بيد طاغية وطنية (صدام)، والشاعر من خلال هذا التوظيف يدين الواقع، ويكشف جرائم الطبقة الحاكمة، لكنه يتجاوز هذا الألم ليؤكد الأمل بأن شعب العراق ينتصر علي طاغيته بعد كل ما فعل. وهكذا يبرز صوت الشاعر يحيي السماوي شاعراً مقاوماً للديكتاتورية مثلما هو مقاوم للإحتلال، والظلامين. أن هذا المونولوج الداخلي الكئيب يبرز أمنية الشاعر التي يرغب تحقيقها، حين يغدو مصدراً للاستمداد النفسي في المواجهة، و طاقة فعالة للإصرار، والعزيمة، والأمل في التعبير عن الممكن.

٧-٤- الحجاج

لقد استدعي الشاعر صورة "الحجاج بن يوسف السقفي" ليقنع بواسطتها، صورة زعماء "حزب البعث" وديكتاتوريتهم من القمع والتسلط والتجبر، وذلك قوله:

قُلْ يا عراقُ متى تفطر – ثائراً – / بدمِ الطغاةِ؟ كـــفى بنا إمْساكا
ما غادَرَ "الحجّاجُ" أَرْضَكَ، إنّما / عشرون "حجّاجاً" بها، سَفّاكا
زَرَعَ "ابن يوفَ" في العراقِ عشيرةً / غَسَلَتْ يَدَيْها من نزيف دِماكا
نُطَـــفٌ مُدَنَّسَةٌ تـــرى في رِجْسِها / مَجْـــداً وفي عَثَراتِها أَفْـــلاكا
أَسْنَـــدْتُ بالأَضْلاعِ خَيْمَةَ عِفَّتي / وجعلتُ جرحَ رجولتي شُبّاكا
فَرَأَيْتُ قـــومي يشربون دموعهم / فمتى سَتَنْفضُ يا عراقُ أساكا؟!

(السماوي، ١٩٩٣الف: ١٠١)

قد وجد الشاعر في التراث الوسيلة الفعالة التي يمكن توظيفها لمواجهة الطغاة والمحتلين، من خلال التذكير، والاستنهاض، وإذكاء الحمية، وإقامة صور المقارنة بين عدو الأمس، وعدو اليوم. أنّ "الحجاج" من الشخصيات التي تمثل الوجه المظلم من تاريخ الإسلامي؛ حاول الشاعر من خلالها امتصاص ملامحها وإضفاء هذه الملامح علي الطاغية "صدام" وحزب البعث، لكشف الواقع المرير عراق التي تعاني من الجوع والفقر والجور والدمار والانكسار. إن العراق تئن تحت سياط حزب البعث وتغرق في الجرح، والدمار، والمآسي؛ ولم يبق للإنسان العراقي بصيص من أمل إثر الجرائم التي تنتهك بحقه في العراق. فأراد الشاعر من خلال هذا الاستحضار، التعبير عن هذا الشر والجراح والدمار الذي ساد في العراق في هذه الفترة؛ فكان "الحجاج"، أصدق في نظر الشاعر في التعبير عن الواقع المعيش. وقد وفق السماوي في إعطاء صورة سلبية عن الديكتاورية الصدامية، من خلال استحضار شخصية "الحجاج"، وقد جاءت هذه الصورة محملة بمشاعر الألم، لتحث المتلقي على تخليص هذا الوطن من ذلك الواقع المأساوي الذي يعانيه.

٨-٤- الإمام الحسين (عليه السلام)

لم يقصر السماوي علي استدعاء الشخصيات الدينية والثورية الكبيرة في شعره، فيستدعي شخصية الإمام الحسين (عليه السلام). وقد ظلت صورة الإمام الحسين (عليه السلام)، تربة خصبة لاستلهام الشعراء، حيث إن الإمام الحسين (عليه السلام)، رمزٌ للحرية، والشهادة، ورفض التخاذل والاستسلام. «تعدّ شخصية الإمام الحسين (ع) في الأدب المعاصر من أبرز أبطال الثورة والدعوات النبيّلة، والذي لم يقدر لثورته أو لدعواته أن تصل إلى غايتها، فكان مصيره الهزيمة، ولم يكن سبب هذه الهزيمة نقصاً أو قصوراً في دعوته أو مبادئه، وإنّما كان سببها أنّ دعواته كانت أكثر مثالية ونبلاً من أن تتلاءم مع واقع ابتدأ الفساد يسرى في أوصاله» (عشري زايد، ١٩٩٧: ١٢١). والسماوي عندما يجيب علي هذا السؤال: «هل كتبت شيئاً من المراثي الحسينية وأين ألقيتها؟ يقول: إنني لم أكتب القصائد الحسينية بمعناها المنبري المباشر لكنني كتبت الكثير من القصائد التي تتضمن الفكر الحسيني، هذا لا يعني أن كتابتي كانت طائفية، فالحسين عليه السلام لم يكن طائفياً، كان مثالاً سماوياً / أرضياً للتسامح وكفى به رمزا لهذا التسامح الخرافي والأسطوري أنه بكى على أعدائه خوفا عليهم من جهنم، أرأيت مقتولا يبكي على مصير قاتله؟!» (الغرباوي، ٢٠١٠، ج١: ٤٤٢-٤٤٣). فشخصية الإمام الحسين (عليه السلام)، بصفاتها الجهادية ورمزيتها البطولية المنتصرة قد أغنت تجربة الشاعر، يستدعي السماوي شخصية الإمام الحسين (عليه السلام)، وذلك قوله:

حاشاكَ تنـــثـــرُ لغزاةِ وُرُودا ... فَلَقَدْ خُلِقْتَ كما النخيلِ عنيدا

لا زال فيكَ من (الحسينِ) بَقيَّةٌ تأْبى الخـــنوعَ وإنْ تُباحَ وريدا

(السماوي، ٢٠٠٥: ١٢- ١٣)

يستدعي الشاعر شخصية ذات رمزية بطولية التي قادت البشرية على طريق الحرية و العدل، ولها أثرها في تاريخ الإسلامي، والممثل الحقيقي لكل دعوة نبيلة التي انطلقت وثارت علي واقع الظالم، وهي شخصية الإمام الحسين (عليه السلام)، والفكرة الرئيسية لهذا الاستدعاء تقوم علي حث الشعب علي الجهاد، والبطولة، والشجاعة، ورفض التخاذل أمام العدو. فهذا الاستدعاء بدوره يسهم في إثراء دلالات النص وتأثير في المتلقي وتعميق الفضاء الدلالي للقصيدة.

أيضاً قوله:

طفلٌ بلا ساقينِ / وطفلةٌ مشطورةٌ نصفينْ / وطاعنٌ دونَ يدٍ / وامرأةٌ مقطوعة النهدينْ / وكوَّةٌ في قُبّةِ "الحسينْ" / جميعها : / حصادُ طلقتينِ من دبّابةٍ / مرَّتْ ب "كربلاءْ" / تحيّةً ليوم "عاشوراءْ" (نفس المصدر: ١٢٥).

إنّ السماوي لم يستطع غضّ النظر عن الواقع المأساوي الذي يمر بالعراق تحت ظل الإحتلال الأمريكي من الشراسة والعدوان. كلّ هذا دفع الشاعر إلى التراجع إلى حادثة كربلاء؛ بوصفها نموذجاً مشرقاً للنصر؛ والعزة، والتضحية. مستلهماً العظمة، والمكانة الرفيعة التي احتلتها شخصية الإمام الحسين (عليه السلام) في ذاكرة الأمة، واستلهام الأثر المرجو الذي يمكن أن تثيره حينما تستدعي بكلّ هذه المقومات في نفس المتلقي. وجعلها وسيلة فاعلة للحض والاستنهاض، والتحريض، وإبراز دلالتها المباشرة؛ هادفاً بذلك إلى إثارة القارئ، وتذكيره، ودفعه لتجاوز راهنه المتردي؛ فهو بهذا التواصل مع الواقعة التراثية يبحث عن المثل الأعلى الذي غاب في ظلام الحاضر. ويصور لنا صورة الإنسان العراقي بالمعاناة والاضطهاد، وصورة الإحتلال الأمريكي في طغيانه، وشراسته، وقتله، وسفكه الدماء، و تدميره العراق.

٩-٤- الإمام علي (عليه السلام)

ويعمد السماوي إلى توظيف الشخصيات التراثية، لتكون تعبيراً عن مواقف يريدها، أو ليحاكم العصر ونقائصه من خلالها، وهو في ذلك يختار الشخصيات التي تتلاءم مضمون تجربته، ومن ذلك شخصية "الإمام علي (ع)" وقوله:

أعوذُ باللّهِ من الصلاةِ خلفَ لحيةٍ / تُمَجِّدُ الغُزاةْ / ومن رصيفٍ ينبذُ الحُفاةْ / أعوذُ باللّهِ من الساسةِ ينسجون للعُراةْ / ثوبَ الشعاراتِ التي تُبايعُ الطُغاةْ / أعوذُ باللّهِ من الأَئِمَّةِ التُجّارْ / الشاكرين نِعْمَةَ الدولارْ / في الليلِ يبكونَ (عَلِيّاً) / ويُبايعونَ قاتليهِ في النهارْ. (نفس المصدر: ١٥١-١٥٢).

إنه شاعر ثائر علي كل ألوان الفساد والانحراف والخزي والإذلال؛ فأراد التعبير عن العار الواقع علي الوطن من جراء سيطرة حزب البعث علي العراق وبعده الإحتلال الأمريكي وتبيين المشهد العراقي الراهن من الفجائع والذل والنفاق. فمن وجهة نظر السماوي أن الحالة السياسية الراهن، هي نفس تلك الحالة السياسية التي كانت في عهد "الإمام علي (ع)" من المكر والخديعة والنفاق والتلبس بلباس الدين. وفي المقطع نفسه يستعير تعبيراً قرآنياً يقلب دلالته الأصلية ليدل علي السلوك المخزي لعملاء الإحتلال والمنافقين. فالاقتباس – هنا – لم يعتمد التضمين المباشر، وإنما اعتمد في تضمينه على نوع من التمثّل الخفيّ للتراكيب والمفردات القرآنية، بشكل يثير في نفس المتلقّي قدرة إيحائية خاصة. إذن، الاقتباس في هذا المقطع يقوم علي بعض الإيماءات الدلالية، التي تشير إلي النص القرآني إشارات طفيفة؛ وظلال الدلالة تأخذ ملامحها العميقة ورموزها من آيات سورة الفلق، (الآية: ١–٥):﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾. والمقصود في الآية من شر جميع المخلوقات:جهنم، وإبليس وذريته. ونلاحظ؛ أنّ السماوي ضمّن معني الآيات القرآنية، تضميناً إشارياً، وفي ذلك إضاءة للنص الشعري، ليعطي دلالة أبعد وأعمق ولتكون لها ظلال من المعاني شبيهة بالمعاني القرآنية. المعني في الآيات القرآنية، أعوذ من شر جميع المخلوقات، جهنم وإبليس وذريته، أما في نص السماوي، فالمعني ينحرف إلي أعوذ من شرّ صاحب لحية تمجد الغزاة، السياسيين، واللصوص، والإرهابيين، والمنافقين، والغزاة، والمحتلين...إلخ. إن ما يريد السماوي في هذا الاستدعاء هو الشكوى، حيث إن الشعب لازال ذليل ويعاني التخاذل والانكسار.

١٠– ٤– الرشيد

شعور التباهي والفخر بالماضي الذي أومض في نفسه من خلال ما تستند إليه أمته من تاريخ، وما حققته من أمجاد، أدى إلى رجوع الشاعر إلى الماضي الذي فقده في هذا الواقع المتردي، فيستدعي شخصية "الرشيد" ومن ذلك قوله:

هل هذه بغـــــداد؟ كنتُ عَرفْتُها ... تــأبى مهادَنَةَ الدَخيلِ العاقِ
تأبى مُساوَمَةً على شرفِ الهــوى ... فَتــذودُ دونَ شَذاهُ بالأرْماقِ
هــل هــذه بغداد؟ تأكلُ ثَدْيَها ... فإذا بها وخــؤونَها بــوفاقِ!
هــذا عراقُك يا (رشيدُ) كبا بِهِ ... جَوْرٌ وعــدوانٌ وفأسُ شِقاقِ

(نفس المصدر: ١٦٥– ١٦٦)

قد اهتم السماوي بإبراز صورة الماضي بإزاء الحاضر، من خلال مخاطبة "الرشيد" والشكوى إليه، ومقايسة زمانه بزماننا، واستحضاره شاهداً على هذا الزمان المتخاذل. فاندفع في تساؤل مرير كيف

ضاع بغداد؟ وضاع المجد؟ وضاع التاريخ. أين العراق وقد تهدمت بغداده و مدنه وحرثت قنابل بنتاغون بساتينه؛ إن هذا السؤال المرير: "هل هذه بغداد؟" هو الباعث وراء هذا الخطاب المعاتب للأمة، وهو الدافع إلى تصوير الماضي الجميل في مقابل الحاضر المتردي، وتشخيص الداء الذي أفضى إلى هذا الحال. ترتبط بغداد في الذاكرة العربية عامة والعراقية خاصة، بعدد من الدلالات والإيحاءات المشرقة، فهي مدينة تاريخية ذات التراث الأصيل، وقد نعمت بالأمن والسلام والرخاء في عهد "الرشيد"، ولكنها فقدت تلك الاستقرار والأمن، نتيجة سيطرة الاحتلال الأمريكي. فتبقى "بغداد" مثاراً للتساؤل أمام القارئ، ويثير الجدل حول ذلك الواقع، فالسماوي يحاول نقل الواقع الراهن في ضوء التواصل التاريخي.

كذلك قوله:

خَسِيءَ الغزاةُ.. فما العراقُ بعاقِرٍ — عَقُمَ الزمانُ وما يزال ولُودا
مـــــــرَّ الغُزاةُ به فخَضَّبَهُمْ دماً — وأذَلَّ راياتٍ لهـــم وحشودا
بالأمسِ زانَ فَمَ العصور (رشيدُهُ) — وغداً سينجبُ للرشيدِ حفيدا

(نفس المصدر: ١٥-١٦)

يستدعي الشاعر شخصية "الرشيد"، التي ارتبطت في الذاكرة التاريخية ببغداد، ورخائها وعزها. فيستدعيها ليصور من خلالها عراق الحاضر التي تعاني من الجوع، والفقر، والجور، والدمار، بغية إثراء دلالات النص، وإدانة الوضع الراهن الذي يعيشه الشعب العراقي من التقاعس والفساد والتخاذل، وبهدف التأكيد علي التاريخ وحضارة الشعب العراقي في الماضي، ورفضه الواقع المؤلم الراهن وما يضم هذا الواقع من المآسي والانكسارات والآلام التي يعاني منها الشعب العراقي في ظل الاحتلال. مندفعاً إلى الحض، والدعوة إلى إعادة الزمن النبيل بكل ما يمثله في نفسه من إيحاءات جميلة مشرقة. وهي كلها عبارات تدل على ترقب الغد الذي تلوح فيه إشاعات الأمل والانبعاث إلى الحياة، ليؤكد أن العراق مازالت تحيا على الرغم مما فعل بها المحتلون من الدمار و الجراح والآلام.

١١-٤- عمار ياسر

يتفنن شاعرنا في تصوير المعاناة وجراح الشعب العراقي، فيتخذ من صورة "عمار ياسر" رمز المعاناة والتضحية والصمود، ومن خلال هذا الاستحضار هو يسعي ليكون مثله في التحدي والعزيمة رغم الجراح والآلام، ويصر علي تحقيق أهدافه، ومن ذلك قوله:

يا "آل ياسرَ" والصمودُ على القذى — طَبْعٌ لمنْ عرفوا الصِراطَ وكبَّروا
ما مات "عمـــار بن ياسرَ".. إنما — مات الذي بدم ابن ياسرَ يأْمُرُ!

(السماوي، ١٩٩٣ الف: ٣٤)

إنّ العراق في ظل قيام نظام البعث وهيمنته علي العراق كياناً وإنساناً، تغرق في الجراح والدمار والجوع. كما يقول السماوي: «فالعراق يحول في ظل نظام "صدام حسين" إلي تابوت علي هيئة وطن! لا أعتقد أن التاريخ يُشهد سادياً مثله، كان يتلذذ برؤية الدم، ولعله الرئيس الوحيد في العالم الذي كان يأمر جلاديه بتصوير ضحاياه وهم يُعذبون وتقطع أوصالهم» (الغرباوي،٢٠١٠،ج١: ٤٣٨). لكن رغم شدة المعاناة، لم يفقد السماوي الأمل في التخلص من هذه المعاناة ومن ظلم الديكتاتورية الصدامية. ويحاول أن يخرج من واقعه المرير، وهو واقع لا يمكن الخلاص منه إلا بمزيد من التضحية والفداء. فيستعين الشاعر بشخصية "عمار ياسر" ليعطي بعداً دلالياً علي الوضع الراهن والواقع المرير في العراق. فالشاعر يحدد طريق الخلاص والتحرير بمواجهة الظلم والاستبداد. والمقاومة والتضحية هي التي توحد صفوف الشعب وتجعله يستعصي علي الانكسار أو يتنازل عن حقوقه الشرعية.

١٢- ٤- قيس بن ملوح

ويستلهم الشاعر شخصية "قيس بن الملوح" و "ليلي العامرية" للتعبير عن شدة حنينه وحبه لوطنه، وتشرده عنه. وذلك قوله:

هَوِّنْ عليكَ فإنّ حَظَّكَ في الهوى ... حَظُّ (ابنِ عَذْرَةَ) في هُيامِ (مَهاةِ)
يا صـــابراً عِقْدَينِ إلاّ بضـــعةً ... عـــــن خبزِ تنّورٍ وكأسِ فُراتِ
ليلاكَ في حُضْنِ الغريبِ يَشِدُّها ... لسـريره حَبْلٌ مـن السُـرُفاتِ
تبكي وَتَسْتَبكي ولـكن لا فَتىً ... فَيَفـــكَّ أَسْـــرَ سبيئةٍ مُدْماةِ
يـــا ابراً عِقْدَينِ إلاّ بضـــعةً ... (ليلى) مُكَبَّـلَةٌ بقَيْـــدِ (غُزاةِ)
ليلاك مـــا خـــانَتْ هواكَ وإنما ... (هُبَـلُ الجديدُ) بزيِّ (دولاراتِ)
إنَّ (المريضةَ) في العـــراقِ عراقَةٌ ... أمّا الطبيـــبُ فَمِبْـــضَعُ الشَهَواتِ

(السماوي، ٢٠٠٥: ٧٤- ٧٥)

إننا ندرك بوضوح عمق هيامه بوطنه، وصدق تعلقه به وفي ظل هذا التلازم العميق بين الوطن والشاعر شكل نصوصه الشعرية، وتوهجت شعلته وهو يؤدي لحن العاشق للوطن، إنه الحب والانتماء الذي يضرب بجذوره في أعماق هذه الأرض، حيث تتفجر من كيان السماوي هذه المعاني لتجسد أجمل معاني الانتماء والحب. فيبدأ المشهد التمثيلي بتوجه الأنظار نحو ابن عذرة (السماوي) و معشوقته ليلي (الوطن)؛ أمّا معشوقة السماوي في حضن الغريب، مكبلة بقيد الغزاة! وقد سلبها الاحتلال. فهو «عاد

إلي وطنه بعد طول غياب وضني واغتراب ليجد محبوبته – ليلاه، عراقه – بين أحضان الغريب! تماماً كحال ابن عذرة (قيس بن الملوح العامري) الذي صبر علي معاناة حبه لليلى وتشرده بعيداً عن القبيلة سنيناً، حتي فوجيء في لحظة العودة أن ليلاه في حضن آخر غريب. هكذا بدت العراق بالنسبة للشاعر» (خفاجي، ٢٠١٠: ١٨١). فالشاعر يلخص علاقته بالوطن من خلال الحبيبة؛ فنستشف منها صدق الانتماء وحرارة العاطفة لأنّ الوطن في مفهوم السماوي عشق ومعاناة وتضحية وتشرد وقد تشرب نفسه كل تلك المعاني.

كذلك قوله:

للمـــوحشاتِ أكنـــتُ مغـــترباً	دامي الخطى أو كنتُ في بَلَدي
للموتِ يجفونـــــي فـــأَتْبَعُـــهُ	أَمَلاً بِعَطْفِكِ يـــومَ مُلْتَحَدي!
أنـــا (قَيْسُكِ) المطرودُ خيـــمتُهُ	بينَ الخيامِ يتيـــــــةُ الوَتَـــدِ!
يا حُزْنَ ماضـــي العمرِ يـــا أَبَتِي	يا صَبْرَ باقي العمرِ يا وَلَـــدي
رِفْقاً بِعُـــكّازي فَـــــقَدْ وَهُنَتْ	ســـاقي وأحداقي بلا مَـــدَدِ

(السماوي،٢٠٠٥: ٤٥– ٤٦)

تمثل هذه الأبيات حالة الهـــمّ، والحزن، والألم المكبـــوت الذي خالط قلب الشاعر، وهو همّ يريد الشاعر أن يخرج به من دائرة الإحساس إلي الشعر. نلاحظ أن الشاعر قد تقنع بشخصية "قيس بن ملوح" – مجنون ليلي – الذي من أجلها جاب الصحاري وشرد وعاف الديار حتي ذهب عقله؛ فكما كان "قيس" مجنونا بليلي، هو مجنون العراق رغم بعده عنه؛ «يتصل حبّ الوطن منشوداً ومأمولاً بالشاعر يحيي السماوي إلي درجة الفداء والتضحية ونُكران الذات وهو بحبّه اللّا مشروط واللّا محدود لمسقط روحه يَسمو فوق جميع الاعتبارات والحسابات التي لا تتماشي مع منطق القلب والوجدان» (العوني، ٢٠١٠: ٢٤٥). ولا يخفي أن ليلي المحبوبة لدي الشاعر هي الوطن، الذي يهيم به كما هام المجنون بليلاه. تتحد علاقة الشاعر بالوطن ووصل الأمر بشاعرنا إلي حالة الوله والعشق الصوفي الذي تفني فيه. وهذه العلاقة القائمة بين الشاعر ووطنه سبباً مباشراً في إضفاء الشعور بالمرارة. كما يقول نفسه: «لقد أحببتُ العراق إلي حدود الكراهية، فالحب قد يتحول إلي حقد حين يأخذ شكل الجنون، صدقني إنه أنثاي الذهبية ووردة الحلم، ومع ذلك، فالعراق هو أيضاً الخنجر المزروع في قلبي: أخشي أن أستخرجه فأموت أو أن أبقيه فأشقي!» (القرني، ٢٠٠٨: ٣٩– ٤٠). وهي الحالة التي يسقطها السماوي على نفسه وعلى حبيبته – وطنه – بأسلوب حواري عميق دال على شدة حنين الشاعر إلى بلده بعد أن سفك المحتلون دماءه.

كذلك قوله:

"ليلاهُ" في حـــضنِ الـــغُزاةِ سبيَةٌ　　أما العـــــشيرُ فسيفُهُ معضوبُ
أجَـــل .. البلادُ نجيبةٌ يا صـــاحبي　　والنخـــلُ والنـــهرُ الجريحُ نجيبُ
لكنَّ بعضَ "رؤوسِنا" يا صـــاحبي　　جُبلتْ علـــى فَسَدٍ فليسَ تثوبُ
غرســـوا بنـــا سُلَّ الشقاقِ فلَيْلُنا　　مُتَأبِدٌ ... وصبـــاحُنا مَعصوبُ

(السماوي، ٢٠٠٦: ٨٥- ٨٦)

إنّ السماوي تغلغل في دمه ماء الفرات، ومع أنه ابتعد عن وطنه – ليلاه – مرغماً، وبرغم ما تعرض له من ويلات النفي والتشريد لكن؛ لم يغب صورة وطنه التي تبعث في نفسه الألم والحسرة، بل ألها تتسرب إلي روحه وتحتل قلبه. هنا يصور الشاعر الواقع المؤلم في العراق تصويراً توصيفياً دقيقاً؛ فجاء هذا المقطع انعكاساً باطنياً لجراح الذات وآلامها من الواقع المؤلم الذي تعيشه وطنه العراق. هذه الأبيات تعبر عن الآلام التي أحدقت بالشاعر في الغربة التي أصبح الشاعر في حزن وأسي عميقين؛ هو يعاني ألم الغربة عن الأهل والوطن (ليلي) وألم المأساة التي يعيشها الشعب العراقي من القتل، والدمار، والنفاق.

١٣- ٤- جميل بثينة

من الشخصيات التاريخية الأخري التي استدعاها السماوي في شعره ليدعم تجربته، هي شخصية "جميل بثينة" ليرمز إلي حبه اللامحدود واللا مشروط لوطنه الجريح، ومن ذلك قوله:

لقد كلّفني "جميل بن معمر" أن أفتح/ عينيَّ بركتين لشياه "بثينة".. / وأن أذود عن بني عذرة بعفاف حبي.. / فدعي شعرك طليقاً.. إنه خيمتي.. وقد / آن لحارسك الأمين، أن يغفو قليلاً / كي يجلس ليحرس نوفذ الليل، حين يستحم / النعاس في عينيك ويستقيظ في مقلتيه الأرق! "المهيب الركن" الذي كان طاغوتاً أمام أمي / وأطفالي، صار أرنباً مذعوراً أمام، / جيوش التحالف حين رأي "المطرقة الجاهزة" توشك أن تطحن رأسه / المثقل بالأوبئة... (السماوي، ١٩٩٣ب: ٤٢-٤٣).

إنّ السماوي قد انصهر بوطنه انصهاراً تاماً وخصص شعره لتصوير العلاقة القائمة بينه وبين الوطن الجريح. لأنه غادر وطنه العراق بعد أن خيم عليه الحزن والخراب، وتسلطت عليه قوي البغي والإذلال. وفي الغربة يقدم الشاعر أروع معاني الحب إلي الوطن، فالحب عنده موروث منذ القرون الأولي فهو عاشق بالوراثة، ولكن الحب الحقيقي عند شاعرنا الجريح لا يقتصر إلا علي الوطن الجريح. وهو ينظر في واقع عراقي مرير يرسم فيه أبشع صور الجريمة، فيتذكر طاغية البلد وما عمله بالعراق من استبداد و ظلم وقهر، ومن خلال هذا التوظيف تتخلق لدي السماوي مشاهد حزينة ترتبط بواقع العراق البائس.

ومن شواهد هذا النمط في الاستدعاء، هي في قصيدة "أنا والعراق بثينة وجميل" وقوله:

أغـــــــفوا على جرحِ السنين مُكابِراً　　وَتَنَسُّكي نحو الصـــراطِ سبيلُ

وَأَذَلَّني عشقي.. فكيف أَصدُّهُ؟ أنا والعراق: "بُثَينَةٌ" و"جميلُ"!
أَزِفَ الوداعُ.. فيا دموعَ رجولتي لا تَفْضَحيني.. فالطريقُ طويلُ!

(السماوي، ١٩٩٣الف: ٤٣)

إنّ السماوي حمل دفء الحب للعراق والثورة علي الدمار والقتل والإرهاب وعبر عما بداخله أصدق التعبير. لأن شعره يصدر عن شاعرية طبيعية وفطرية أدبية؛ كما يؤكد السماوي «الشعر بالنسبة لي منديل.. ودواء.. وعصا.. بهذا المنديل أمسح دموع قلبي.. وبهذا الدواء أقاوم الموت إكراماً للمحبة والحياة.. وبهذا العصا أنشّ عني ذئاب الوحشة في براري الغربة» (الغرباوي،٢٠١٠،ج١: ٣٨١-٣٨٢). تلفت نظرنا في هذا المقطع المستشهد به، نبرة الحزن والمأساة التي يعيشها الشاعر في هذا الموقع المؤلم الراهن من الدمار والجراح والتشريد، وتتحد علاقة الشاعر بالوطن ووصل الأمر بشاعرنا إلي حالة الوله والعشق الصوفي الذي تفني فيه. إذن، لهذه الشخصيات التراثية من الدلالات العميقة بإمكانها أن تضئ جانباً من جوانب رؤيته الشعرية، وتشيع ببعدها التاريخية أجواءً من حالة الحب الخالد بين السماوي و وطنه الجريح وحالة الفراق المرير التي مُني كل منهما في حبه.

١٤- ٤- امرؤ القيس

ومن الشخصيات الأخرى التي وظفها السماوي شخصية "امرؤ القيس" وقد استدعاها السماوي لتدل على الشخصية المشردة الضائعة التي تتحمل آلام المحنة والتشريد. من ذلك قوله:

هـــي فرصةٌ فلتغنميها قبلـــما أغفو و لم أكتبْ كتابَ وَصَاتي
لا تخسري عرشَ الجنونِ ورثتهُ عـــن مـــستباحٍ لاذ بالفلوات
والتائه "الضليل" باعَ بنشوةٍ ملـــكاً.. وأنعـــاماً بنايِ رُعاة
أنا جنتي وأنا جحيمي.. جَرِّبي وَجَعـــي لتكشفي غـــرابةَ ذاتي

(السماوي، ٢٠٠٨: ١٨٣- ١٨٤)

يتّخذ السماوي شخصية "الملك الضليل" ويرى فيها ما يتشابه مع تجربته الذاتية، فكلاهما قد عانى من النفي والتشرد والقهر؛ وقد ارتبط استدعاء هذه الشخصية التراثية باستدعاء شخصية أخرى وهي "قيس بن الملوح" - مستباحٍ لاذ بالفلوات – لدعم تجربته وتجسيدها بشكل تام، فالشاعر يشير إلى صدمته القوية الناتجة عن المعاناة وتشرد أبناء الشعب العراقي في ظل هذا الواقع المتردي إثر احتلال الأمريكان للعراق؛ فقد حرر الاحتلال العراق من ظلم الديكتاتورية الصدامية، ليحتلها احتلالا أشد قسوة ومأساة من النظام السابق؛ وهم كالمستصرخ من الرمضاء بالنار. ومن خلال هذا تتخلق لدى السماوي مشاهد حزينة ترتبط بواقع العراق البائس، و ينطلق إلى الكشف عن خبايا شديدة الأسى لابد من كشفها

والوقوف عليها. من الواضح في هذه الأبيات أن هذه التجربة الوجدانية أصيلة متجذرة في نفس الشاعر ووجدانه، وليست أصداء عابرة لتجربتة موقوتةٍ.

١٥- ٤- توظيف الشخصيات التاريخية الأخري

إنّ السماوي يرجع إلي التاريخ ويستغل طاقاته الحية ويوظفها في نصه الشعري؛ ليجسد واقعه الذي يعيشه ويعاني همومه وآلامه وآماله، استعان الشاعر بالشخصيات التاريخية متخذاً منها رمزاً موحياً، ووسيلة لتصوير الواقع العراقي المرير. ومن ذلك قوله:

إنَّ زنزانةً أغفو فيها آمِناً / لأوسَعَ عندي / مِنْ وطنٍ / لا أمانَ فيه! / كيف لي أنْ أميِّزَ / بين سيف "عروة بن الورد" وسيف "هولاكو" / بين "عمامة الحسن البصريّ"(٥) وقلنسوة "تيمورلنك" / بين "الحُرِّ الرياحيّ" و"زياد بن أبيه" / بين "الحلاج" و"الحجّاج" / بين لِحيةٍ مُخضَّبةٍ بالديناميت / وأخرى مُحنّاةٍ بدموع النسك / بين البرتقالةِ والقنبلة / بين "العَرَبي" و"العِبري" / بين الخيط الأبيضِ والأسود: / إذا كان الدخانُ / يمتدُّ من نافذة الصباح / حتى سِتارةِ الليل / والقائمون على أمره / قد استَبْدلوا "صورةَ الكرسيّ" / بـــ "آيةِ الكرسيّ" / و"الحَجَرَ الأبيض" بـــ "الحَجَر الأسود" ؟؟ / كيف أميِّزُ / بين اللصِّ والناطور / إذا كنتُ مفقوءَ العينين / في وطنٍ / أضحى مرعىً / للمُلثَمين ؟ (السماوي، ٢٠٠٩: ٣٨- ٤٠).

عاش العراق في القرن الحاضر، في وضع سياسي قلق تظهر آثاره في حياة شعبها بكافة نواحيها؛ فقد أخذ السياسة، والأحداث السياسية مكانة مهمة من حياة العراق بحيث يمكن القول إنها تمثل الوجه البارز للنشاط الفكري والثقافي والأدبي في العراق. وبالرغم من أن السماوي عاني البعد عن الوطن طويلاً، بعد أن خيم عليه الحزن والخراب، في ظل سياط ديكتاتورية "حزب البعث" ظل علي اتصال مستمر مع وطنه، ويعبر عن وطنه بصوره الراهنة بمآسيه ومظالمه. تلفت نظرنا؛ في هذا المقطع المستشهد به، نبرة الحزن والمأساة التي يعيشها العراق في ظل الإحتلال الأمريكي من الاقتتال الداخلي. وجاءت الشخصيات التاريخية السلبية – هولاكو، زيادبن أبيه، الحلاج، تيمور لنك – رموزاً للدمار والخراب والسقوط، والتردي، والتآمر. واختياره لهذه الشخصيات لم يأت عبثاً، فجميعهم يوجع قلبه ويمزقه، وجاءت الشخصيات التاريخية الإيجابية – حسن البصري، حر الرياحي والحلاج- رمزاً للتعالي والحرية والإصلاح، إذن إنّ الشاعر لم يستطع غضّ النظر عن الواقع المأساوي يمر بالوطن الذي أثكله الطغاة والنفاق والارهاب. وتوظيف هذه الشخصيات بهذه الكثافة نبعت من مرارة الواقع المتردي السياسي الذي يعيشها الشعب العراقي من القمع الداخلي والانكسار الخارجي. وهذه الوضعية التي يصفها الشاعر

تجسد الأزمة الحقيقية التي مرت بها العراق وتصارع القوي والمنافقين والإرهابيين و...إلخ، فيها من أجل الظفر بغاياتهم وأهدافهم في السلطة.

نتائج البحث:

– يتّضح مما سبق أنّ السماوي استطاع أن يوظف هذه الشخصيات من خلال هذه الكثافة لإثراء نصه بما ينسجم مع تطلعات القارئ، فهي تبعث في النفس الحزن والألم علي الماضي الذي يضم شعبه وتاريخه إذ شاهد ما حل بالعراق وما أعقب ذلك من الدمار والمآسي.

– يستهدف السماوي ما يحمله هذا التوظيف من أثر دلالي علي الحاضر بتسليطها الضوء علي طبيعة الحكام والخونة، وتبيين مرارة الواقع المتردي السياسي المرير في العالم العربي.

– السماوي بالرجوع إلي التاريخ يستعير ملامح الشخصيات السلبية، – هولاكو، تيمور لنك، الحجاج و...– لتعميق معني الذل والهوان، وتعبير عن الدهشة؛ مما يحدث في الواقع الراهن العراق من التخاذل والخنوع والخيانة، وحماية العدو، ويحث الشاعر الشعب لاستئصال جذور هذه الخونة من الوطن.

– قد تواصل السماوي مع الموروث، ومن خلال هذا التواصل يصل الماضي في الحاضر، ويجعل الوضع الراهن في العراق، صورة متجددة من صور الماضي.

– السماوي يصور مسلسل القتل والتدمير في العراق؛ سواء في ظل النظام الديكتاتوري، أو تحت رحي جيوش "هولاكو" الجديد. فليس التاريخ الماضي إلا معادلاً فنياً وموضوعياً لتاريخ الحاضر.

– استدعي السماوي الشخصيات التاريخية الإسلامية كشخصية الإمام علي(ع)، الإمام الحسين (ع) وعمار ياسر...، لبعث روح المقاومة وعدم الاستسلام، وحث الشعب علي الجهاد ومواجهة العدو الغاشم.

– يوظف الشاعر شخصية "قيس بن ملوح، جميل بثينة، امرؤ القيس"، ليرمز إلي حبه اللامحدود واللا مشروط لوطنه الجريح، وما عانى من النفي والتشرد والقهر.

– وكانت الفكرة الرئيسية لتوظيف هذه الشخصيات، تقوم علي رسم الشاعر صورة معبرة عن مأساة الشعب العراقي وتبعاتها، لما حل بهم من القتل، والجراح، والآلام؛ وهو بذلك يريد تصوير جرائم الديكتاتورية الصدامية والاحتلال الأمريكي وعملائه وأثرهما المدمر علي حياة الشعب العراقي بكافة نواحيها. وهي بدورها تؤكد موقف الشاعر مما يجري في بلده، وتكشف موقفه وما يختزنه من أسي وألم.

الهوامش

١- عندما قَتل أحدُ قواد الروم، ثلاثة أطفال لأمرأة مسلمة في عمورية، فصاحت قائلة وامعتصماه! يقال ان المعتصم سمع الصرخة في المنام فاستيقظ ثم طلب أن يحضروا المرأة في بغداد، فعزم المعتصم علي نصرها فجهز جيشاً جراراً أوله في عمورية وآخره في بغداد، حتي احتل عمورية فقبض علي القائد الذي قتل أبناءها. (للمزيد من التفاصيل، أنظر: تاريخ الطبري، ج/٩: ٦٤- ٧١).

٢- **عبير قاسم حمزة:** صبية عراقية من مدينة المحمودية، كانت في طريقها إلى بيتها حين شاهدها رهط من الجنود الأمريكيين، فتبعوها حتى دخلت بيتها، فاقتحموها، قتلوا أباها وأمها وبقية أفراد العائلة، ثم تناوبوا على اغـــتصابها قبل قتلها وإضرام النار في البيت لإخفاء جريمتهم.

٣- **كامل شياع:** هو أحد شهداء الانتفاظة الشعبية العراقية زمن سيطرة "حزب البعث".

٤- **السبي البابلي:** إن "نبوخذ نصر" ملك بابل، أخمد ثورة قام بها اليهود، وعندما أعادو الكرة، لم يخمد ثورتهم وحسب، بل ساق ملكهم وكبار المملكة أسري إلي بابل، وهذا هو الحادث الذي يعرف في التاريخ اليهودية بـــ"السبي البابلي".

٥- **الحسن البصري:** هو الإمام أبو ســـعيد الحسن بن يسار البصري، المولود في المدينة المنورة ســـنة ٢١هـــ. في خلافة عمر، أقبل على حفظ القرآن الكريم، وقد عُرف بالتقوى والعبادة والورع وكثرة البكاء، واشترك في الفتوحات الإسلامية، وحياته حافلة بالعلم والزهد والورع والخشية والجهاد، والوقوف في وجه الطغاة والجبابرة.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. بدوي، محمد جاهين. (٢٠١٠). **العشق والاغتراب في شعر يحيي السماوي "قليلك لاكثيرهن نموذجاً"**، ط١، دمشق: دار الينابيع.

٣. حمدان، عبد الرحيم. (٢٠٠٧). *«استدعاء الشخصيات الوطنية والجهادية والتراثية في ديوان " حديث النفس" للشاعر الشهيد عبد العزيز الرنتيسي»*؛ **مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية،)**، العدد الأول، المجلد الخامس عشر.

٤. خفاجي، عبد الجواد. (٢٠١٠). *«قراءة في قصيدة يحيي السماوي؛ يا صابراً عقدين إلا بضعة»* ضمن كتاب، **"تجليات الحنين في تكريم الشاعر يحيي السماوي"** لماجد الغرباوي، ج٢، ط١، دمشق: دار الينابيع.

٥. السماوي، يحيي. (٢٠٠٥). **نقوش علي جذع نخلة**، ط١، أستراليا: منشورات مجلة كلمات.

٦. ---------- . (٢٠٠٨). **البكاء علي كتف الوطن**، ط١، دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر.

٧. ---------- . (١٩٩٣ الف). **قلبي علي وطني**، ط١، جدة: عبد المقصود محمد سعيد خوجة.

٨. ---------- . (١٩٩٣ ب). **جرح باتساع الوطن**، ط١، جدة: عبد المقصود محمد سعيد خوجة.

٩. ---------- . (٢٠٠٩). **شاهدة قبر من رخام الكلمات**، ط١، دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر.

١٠. ---------- . (٢٠١٠). **لماذا تأخرت دهراً**، ط١، دمشق: دار الينابيع.

١١. ---------- . (٢٠٠٦). **قليلك لا كثيرهن**، استراليا: منشورات مجلة كلمات.

١٢. شرتح، عصام. (٢٠١١ الف). **آفاق الشعرية دراسة في شعر يحيي السماوي**، ط١، دمشق: دار الينابيع.

١٣. ------- . (٢٠١١ ب). **موحيات الخطاب الشعري في شعر يحيي السماوي**، ط١، دمشق: دار الينابيع.

١٤. الطبري، أبو جرير. (د. ت). **تاريخ الطبري؛ تاريخ الأمم والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، بيروت: دار الكتب.

١٥. عبد النور، جبور. (١٩٧٩). **المعجم الأدبي**، ط١، بيروت: دار العلم للملايين.

١٦. عشري زايد، علي. (١٩٩٧). **إستدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر**، مصر: دار الفكر العربي.

١٧. ---------- . (٢٠٠٣). **عن بناء القصيدة العربية**، ط٥، الرياض: مكتبة الرشد.

١٨. العوني، محسن. (٢٠١٠). *«الوطن منشوداً وموجوداً في شعر يحيي السماوي»*، ضمن كتاب، "تجليات الحنين في تكريم الشاعر يحيي السماوي" لماجد الغرباوي، ج٢، ط١، دمشق: دار الينابيع.

١٩. الغرباوي، ماجد . (٢٠١٠) . **تجليات الحنين في تكريم الشاعر يحيي السماوي**، المجلدين، دمشق: دار الينابيع.

٢٠. قباني، نزار. (١٩٨١) . **ما هو الشعر**، ط١، بيروت: منشورات نزار قباني.

٢١. القرني، فاطمة. (٢٠٠٨). **الشعر العراقي في المنفي "السماوي نموذجاً"**، ط١، الرياض: مؤسسة اليمامة الصحفية.

٢٢. هارون، عبد السلام. (١٩٨٥). **تهذيب سيرة ابن هشام**، ط ١٤، كويت: دار البحوث العلمية.

فصلنامهٔ لسان مبین(پژوهش ادب عربی)
(علمی – پژوهشی)
سال هفتم ، دورهٔ جدید، شمارهٔ بیست سوم، بهار ۱۳۹۵

به کارگیری میراث تاریخی در شعر یحیی سماوی*

یحیی معروف، استاد گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه رازی کرمانشاه
بهنام باقری، دانشجوی دکتری گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه رازی کرمانشاه

چکیده

به کار گیری «شخصیت‌های تاریخی» یکی از ویژگی های فنی تاثیر گذار در گفتمان شعری معاصر است. این پژوهش بر آن است به بررسی کاربرد«شخصیت های تاریخی» در شعر یحیی سماوی بپردازد؛ تا ویژگی‌ها ودلالت ها و چگونگی تعامل شاعر با آن مشخص شود. یافته‌های این پژوهش نشان می‌دهد شاعر تلاش کرده نقش ودلالتی را که این شخصیت‌ها در گذشته داشته‌اند برای بیان و تصویر وضعیت حاضر و وضع سیاسی و حوادث دهشتناکی که در عراق می‌گذرد به کار گیرد. کاربرد این شخصیت‌ها در شعر او؛ دیدگاه شاعر، درد و رنج و آوارگی او از وطن، و آنچه که در عراق از جرایم، خونریزی‌ها، و حوادث دهشتناک می‌گذرد را نشان می دهد. «سماوی» با به کار گیری این شخصیت‌ها، تصویری گویا از مصیبت‌ها، درد و رنج خود و مردم عراق در زمان سلطه «حزب بعث»، و بعد از آن اشغال گیری آمریکایی‌ها و مصیبت‌های ناشی از آن، و جرائم دهشتناک آنان در عراق، ارائه داده است. شاعر همچنین ضمن تعبیر از احساس خود و بیان این مصیبت‌ها، مردم عراق را به مبارزه طلبی و پایداری در برابر آنان بر می‌انگیزد. و به نظر می رسد؛ شاعر با بکارگیری این شخصیت‌ها، احساس خود و جرایم، خونریزی-ها، مصیبت‌ها، و غم و غربت و آوارگی خود و مردم عراق، را به نحو احسن نشان داده است.

کلمات کلیدی: یحیی سماوی، میراث تاریخی، اشغالگری، عراق.

---

* تاریخ دریافت:۹۳/۱۲/۰۲ تاریخ پذیرش نهائی: ۹۴/۰۶/۰۸

نشانی پست الکترونیکی نویسنده: y.marof@yahoo.com